جميع حقوق الطبع محفوظة لموقع الحياة 2019

أمين الباشا التشكيلي أدباً ورسماً

يواصل الرسام أمين الباشا في «زهراء الأندلس» (دار نلسن) ما بدأه في كتابيه السابقين «دقات الساعة» و»شمس الليل»، فيجاور بين الكتابة والرسم، ويُدخل النوعين المختلفين في علاقة تناغم، ويتيح لك فرصة الجمع بين مهارة القراءة ومتعة المشاهدة. علماً أن الرسوم الواردة في الكتب الثلاثة مستوحاة من النصوص. وهكذا، يشكّل «الكتابي» منطلقاً للفني الذي اقتطع من ضلعه، وينخرط معه في علاقة تناغم وتزاوج وتكامل.

اثنان وعشرون نصاً واثنان وعشرون رسماً هي المادة التي يتشكّل منها «زهراء الأندلس». وإذا كانت الرسوم يجمع بينها الأسود والأبيض وتتوزّع على مفردات الإنسان وجوهاً وقامات وأزياء وأماكن مدينية وعلى الطبيعة نباتاً وطيراً وحيواناً ومواقع ريفية، فإن النصوص تتوزّع على أنواع أدبية عدة كالقصة القصيرة، والمقالة، والخاطرة، والذكريات، واليوميات والأحوال، والسيرة والنقد الفنيين. مع العلم أن القصة القصيرة تستأثر بحصة الأسد، فتشغل قرابة نصف الكتاب. والمادّة، بنوعيها الكتابي والفني، هي بنت أمين الباشا الشرعية، تعكس تجربته، ثقافته، فنّه، وحياته المدينية... فهو بطل معظم قصصه أو الشريك في بطولتها، في مراحله العمرية المختلفة. وهو كاتب الأنواع الأخرى من موقع المراقب المتأمّل أو المنخرط في التجربة... وفي الحالتين هو الأب الشرعي لجميع نصوصه كما لجميع رسومه، ما يجعلنا إزاء واقعية، سواء في الكتابة أو الرسم.

يتناول الباشا في قصصه العشر الأحلام المجهضة بفعل عامل خارجي، والوحدة ومضاعفاتها، وارتباط الحب بالفن، وثمن الانبهار بالآخر المختلف، والحنين إلى الماضي العربي الجميل، والفراغ العاطفي، ولذّة انتظار الحبيب، وكيفية استعادة الراحلين، وشعبية المقاومة. والبطل في هذه القصص يعاني انكسار الحلم، أو يتردّى في الوحدة فيعكف على ذاته يحاورها، أو يعيش فراغاً عاطفيّاً فينقطع عن الإبداع، أو ينبهر بالآخر فيدفع ثمن الارتباط به، أو يحسّ بالنقص

فينتظر ما يكمل نقصه، أو يحنّ إلى عزيز فيستعيده، أو يستشعر هول العدوان فيلتحق بالمقاومة... وهكذا، ثمّة عامل خارجي غالباً يتحكّم بتصرّفات الشخصية القصصية وردود فعلها، ويرسم المسار الذي تتّخذه الحوادث. وكأنّ القصة هي هذا التفاعل بين الداخل الذي يعتروه نقص ما والخارج الذي يتطوّع لردم هذا النقص.

فراغ عاطفي

في «أنا مسافر ودّعوني»، يحلم الصبي ابن العاشرة بالسفر، فيندسّ بين ركّاب الباخرة خلسة، غير أن اكتشاف المراقب إيّاه يؤدّي إلى إجهاض حلمه، حتى إذا ما عاد إلى البيت يكون العقاب بانتظاره. في «جانين» تفعل الحرب فعلها في المكان القصصي، فتجعل بيروت بيتاً بلا سقف وجدران، فتجهض أحلام جانين التي تصارع «التنين». أما في «المرآة» فينخرط السارد في حـــوار مع صورته في المرآة من موقع العـلاقة بين قامع ومقموع. هو يأمر وينهى والصورة تصغي وتنفّذ. ما يحيل على نوع من الانفصام المترتّب على الوحدة المتعدّدة الوظائف القـصصية، بحيث تعادل الحرية مرّة، وتدفع إلى الهذيان أخرى.

في «شاعر ورسّام» ثمّة حوار بين الشخصيتين يتمخّض عنه أن افتقار كلٍّ منهما إلى العاطفة والحب يتسبّب في انقطاعه عن مزاولة الفن. في «ابن لودفيغ» تدفع هلا ثمن تسرّعها وارتباطها بالآخر المختلف قيماً، فيتركها لمصيرها وغربتها وكبريائها الجريح. في «زهراء الأندلس» يستيقظ الحنين إلى الزمن العربي الأندلسي الجميل بفعل لقاء عابر وحكاية معتّقة. في «آدم وحواء»، التي يكتفي الكاتب فيها بدور الراوي العليم، من دون المشاركة في البطولة كما في بقية القصص الأخرى، يطيح قِصَرُ نفس البطل بعلاقته العاطفية المستجدة، فيغرق في فراغ عاطفي لا يعرف كيف يملأه لعدم إتقانه الفن.

هكذا، يختلف توظيف الواقعة نفسها من قصة إلى أخرى؛ فبطلا «شاعر ورسام» ينقطعان عن مزاولة الفن لافتقارهما إلى التجربة العاطفية بينما بطل «آدم وحواء» يتردّى في فراغ عاطفي لجهله بمزاولة الفن. في «الانتظار» يمنح الحب صاحبه القدرة على الانتظار بينما تعجز الصداقة عن فعل ذلك، وفي هذا تقديم لعلاقة الحب على ما عداها. في «ظهور لوركا في باريس» التي تتفرّد عن القصص الأخرى في مزج الواقعي بالغرائبي، يقول الباشا أن استعادة الأعزاء الراحلين لا تكون بتخيّل عودتهم، ممّا يقع في باب الغرائبي غير المتحقق واقعيّاً، بل في تفقد أماكنهم، واستعادة ذكرياتهم، وتنسّم أرواحهم. في «المقاوم» تقول القصة تحدّر المقاومين من الشريحة الشعبية التي وقع عليها أذى العدو، فالعتّال وعامل التنظيفات اللذان فقدا أسرتيهما في عام 1967 ينخرطان في أعمال المقاومة بفعل تنامي الوعي عندهما، فيستشهد أحدهما ويحسّ الآخر برجولته.

هذه القصص يحضر فيها الباشا في شكل مباشر من خلال قيامه ببطولة القصة أو المشاركة فيها، ويحضر في شكل غير مباشر من خلال شهادته على وقائعها أو رويه لها. وهذا الحضور، بنوعيه المباشر وغير المباشر، ينسحب على النصوص الأخرى في «زهراء الأندلس»؛ فهو يحضر مباشرة، حين يكون هو نفسه الكاتب وموضوع الكتابة، كما في «كنت أذهب إلى سينما ماجستيك» الذي يستعيد فيه ذكريات مدرسية تتعلّق بارتياده السينما تلميذاً، والعقوبات المفروضة على أمثاله، وصرامة الأب سبريدون. ويجمع هذا النص بين السرد والأحكام النقدية، بين ذكريات الطفل وأفكار الكبير، فيقارن الباشا بين سينما الأمس التي «تشعرك بالعمل الفني الذي تحققه مخيّلة الإنسان»، وسينما اليوم التي «تحقق مخيّلتها بواسطة التكنولوجيا»، وينقصها سر الروح معلناً انحيازه إلى الأولى.

ذكريات من الطفولة

ويحضر مباشرة في «أيام مع فريد عواد» الذي يستعيد فيه ذكريات صداقة وزمالة مع رسام آخر تتخلّلها أحكام نقدية

فنية ومسرحية، وفي «يوم من الأيام»، النص السردي الذي يتناول طقوسه اليومية التي يمارسها في أمكنة متعددة (البيت، المقهى، المرسم)، وأزمنة متعددة (الليل، النهار، الغروب)، ويرصد حركته الخارجية والداخلية. على أنه يرصد هذه الأخيرة أيضاً في «هذا ليس حزناً»، فيتناول حالة الحزن التي تلمّ به، ويردّها إلى الخوف من عدم تحقيق أحلامه، ويحدّد تمظهراتها في التوقف عن الكتابة، والعكوف على الذات، وأحلام اليقظة، والإقلال من الكلام. ويحضر الكاتب مباشرة في «لا سياسة بعد الآن»، فيروح يسرد في شكل تلقائي طقوسه في قراءة الجريدة، مبيِّناً عزوفه عن قراءة الصفحات السياسية إلى صفحات الوفيات والاقتصاد، والانتقال إلى بعض الأحلام ونسيان الأسماء. إنّه سرد تلقائي، مجّاني، لا يربط بين موضوعاته سوى تمحورها حول الكاتب.

في النصوص الأخرى من الكتاب يحضر أمين الباشا كاتباً من دون أن يحضر موضوعاً؛ فيدبّج مقالات في تبرير الكتابة «كي لا أنسى»، وفي السخرية من مصطلحات أُفرغت من مضمونها «عصفورية»، وفي الكلمة ومآلاتها ساخراً من الألقاب العلمية وحملتها «لغة الصمت»، وفي بعض المصطلحات الفنية «ولادة الطبيعة»، وفي السخرية من بعض الفنانين «لا تفسير للفن»، وفي السيرة الفنية «بيكاسو الأندلسي»...

يجمع الباشا في نصوصه بين تلقائية السرد، والوعي بما يقوم به عن سابق تصوّر وتصميم، ويقطع السرد بالتفاتات تبرز هذا الوعي، وكثيراً ما يتجاور في النص الواحد السارد والناقد الفني، فتتناثر في النص السردي شذرات نقدية متفرقة تعبر عن تنازع الكاتب والفنان والناقد الفني الحضور النصي.

في «زهراء الأندلس» يتنازع الكاتب والفنان، ولعلّ حضور الفنان هو الأقوى في هذا التنازع؛ ففي حين يقتصر تأثير الكاتب في الفنان على الإيحاء بالرسوم الداخلية المولودة من النصوص والمكمّلة لها، فلا يتعدّى الإطار الخارجي للرسم إلى داخله، نرى أن الفنان في أمين الباشا يقتحم نصّه الكتابي، ويعلن حضوره في العناوين والمتن والمصطلحات والمعلومات والتجربة الفنية والمادة الأولية للكتابة. وهذا أمر طبيعي، فالكاتب ابن تجربته وثقافته كما هو ابن بيئته. ومن الطبيعي أن تكون النصوص مرايا تعكس جوانب من شخصية الكاتب، بهذا القدر أو ذاك. على أن مسألة الحضور ليست مسألة كمّيّة، فنصّيّة النص الكتابي، بمعنى شعريته، لا تقارن بفنية الرسم، بالمعنى نفسه، فلكلِّ نوعٍ شعريّته بمعزل عن تأثّره أو تأثيره في النوع الآخر.

«زهراء الأندلس» ثالثة الأثافي في مسيرة أمين الباشا الكتابية، والثالثة ثابتة.

آداب وفنون

سلمان زين الدين

10/04/2015

جميع حقوق الطبع محفوظة لموقع الحياة 2019